# واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا

بقلم الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

لقد أمَرَنا ربُّنا – جلَّ جلاله – بالاجتِماع والاعتِصام بحبلِه جميعًا، ونهانا عن التفرُّق؛ فقال – سبحانه –: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وحذَّرَنا من التفرُّق في مَواضِعَ عِدَّة من القُرآن؛ فقال – تبارك وتعالى –: ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ ﴾ [آل عمران: ١٠٥ – ١٠٦].

وقال – سبحانه –: ﴿ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١ – ٣٢].

لقد أمَرَنا بأنْ نتَّقِيَ الله ونُقِيمَ الصلاة، وحذَّرَنا من أن نكون من المشرِكين الذين فرَّقوا دِينهم وكانوا أحزابًا.

وقال – سبحانه – في سورة الأنعام: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وحذَّرَنا رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – من التفرُّق، وحَضَّنا على لُزُوم الجماعة في أحاديثَ كثيرة، نُورِد بعضَها فيما يأتي:

عن ابن عباسٍ – رضِي الله عنْهما – عن النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنَّه قال: ((مَن رأَى من أمِيرِه شيئًا فلْيَصبر علَيْه؛ فإنَّه مَن فارَق الجماعَةَ شِبرًا فمات، مات مِيتَةً جاهليَّة))؛ رواه البخاري برقم (٧٠٥٤).

وعن أبي ذرٍّ – رضِي الله عنْه – قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((مَن فارَق الجماعة شِبرًا، فقد خلَع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه))؛ رواه الترمذي برقم (٤٧٥٨).

وعن أبي الدرداء – رضِي الله عنْه – أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((عليكم بالجماعـــة؛ فإنما يَأكُل الذِّئب القاصِيَة))؛ رواه النسائي (٢/١٠٧).

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب – رضِي الله عنْه – قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وســـلَّم –: ((... عليكم بالجماعة، وإيَّاكم والفُرْقةَ؛ فإنَّ الشيطان مع الواحد وهو مِن الاثنين أبْعدُ، مَن أراد بُحبُوحَة الجنَّـــة، فلْيَلزَمِ الجماعةَ، ومَن سرَّتْه حسنتُه وساءَتْه سيِّئتُه، فذلكم المؤمن))؛ رواه الترمذي برقم (٢١٦٥)، وابن ماجـــه برقم (٢٢٦٣).

وعن ابن عمر – رضِي الله عنْهما – أنَّ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – قال: ((إنَّ الله لا يجمَع أُمَّتي على ضَلالة، ويَدُ الله مع الجماعة، ومَن شَذَّ شَذَّ إلى النار))؛ رواه الترمذي برقم (٢١٦٦).

وعن ابن عبَّاس – رضِي الله عنْهما – قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وســـلَّم –: ((يَـــدُ الله مـــع الجماعة))؛ رواه الترمذي برقم (٢١٦٧).

وعن محمَّد بن جُبَير بن مُطعِم عن أبيه قال: قال رسولُ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((ثـــلاثٌ لا يَغِـــلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ: إخلاصُ العمل لله، والنصيحة لوُلاَة المسلمين، ولُزُوم جماعتهم))؛ رواه ابـــن ماجـــه بـــرقم (٣٠٥٦).

هذا الذي دَعانا إليه اللهُ تعالى، ورسولُه – صلَّى الله عليه وسلَّم – كما جاء في هذه النصوص الصَّـــرِيحة السابقة، ولكن هل نحن كذلك؟

إنَّه ليُؤسِفني أنْ أقرِّر – بكلِّ مَرارةٍ – أنَّنا لسْنا كذلك.

في واقعنا العربي انقِسامٌ ومَحاوِر مُتَباينة؛ لأسبابٍ خارجيَّة وداخليَّة، وكان مِن جرَّاء ذلك الانقِسام تَراشُقٌ بالتُّهَم، وخِصامٌ وسِباب، وتَناحُرٌ وقِتال.

وكُلٌّ يدَّعِي أنَّه هو المُحِقُّ، إنَّه واقِعٌ مُؤلِم.

وتَقُوم بين الفَيْنَة والفَيْنَة دَعواتٌ إلى الاتِّحاد والتَّفاهُم والاتِّفاق، تَنطَلِق هذه الدَّعوات من جهات مُتعدِّدة:

تَنطَلِق حِينًا مِن فريقٍ صادِق، يَوَدُّ الالْتِقاء على كلمةٍ سواء، معتمدةٍ على كِتاب الله تعالى، وسُنَّة رسـوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – ومصلَحة الأمَّة، وتنطَلِق حينًا من فريقٍ مُرتَبِط بالأعداء، الذين أغرَوْه بالمكانة والمـادَّة، فأصبَحُوا من ذَوِي الألْقاب الكبيرة، والثَّروات الواسِعَة، ورَحِمَ الله الشاعرَ خليل مردم، الذي صَوَّرَ هذا الفريقَ عندما تحدَّث عن الفَرنسيِّين وما فعَلُوه في الشام، فقال:

سَامَحَ اللَّهُ الْحَمَامَهْ ... سَلَبَتْ جَفْنِي مَنَامَهْ
نَحْنُ فِي الشَّامِ نُقَاسِي ... مِثْلَ أَهْوَالِ القِيَامَهْ
مَا لَنَا فِي أَمْرِنَا حَتْ ... تَى وَلاَ مِثْلُ القُلاَمَهْ
أَخَذُوا الْأَمْرَ وَأَعْطَوْ ... نَا "الْمَعَالِي" وَ"الفَخَامَهْ"
هَلْ يَصِيرُ الْهِرُّ لَيْثًا ... حِينَ تَدْعُوهُ أُسَامَهْ
كَمْ نُفُوسٍ تَتَلَظَّى ... حَسَرَاتٍ وَنَدَامَهْ
تَتَنَزَّى لِلَّتِي تَغْ ... سِلُ عَارًا وَمَلاَمَهْ

"أقوال مأثورة" (٢/٧٥).

وتنطلق حينًا من فريق يكتَفِي بالمظهَر، ولا يلتَفِت إلى الأساس الذي تَكُون عليه الوَحْدة، والحُكْم على هذه الدَّعوات يختَلِف باختِلافِ الدَّافِع إليها، وباختِلاف الأساس الذي تَقُوم عليه.

فإنْ كان الأساسُ الذي تَقُوم عليه الدَّعوةُ هو الارتِماءَ في حِضْن الأَعداء، الذين نكَّلوا بنا – ومـا زالـوا يُنكِّلون – فهي دعوةٌ مرفوضةٌ.

وإنْ كان الأساسُ الذي تقوم عليه الدَّعوةُ مُقتَصِرًا على (تبويس الشوارب) كما يقولون، وتَرديد كلماتِ الوُدِّ والتَّسامُح والوَحدة، ويَبقَى كُلُّ فريقٍ على ما كان عليه، وقد يَدعُو أحدُ الفريقَيْن إلى التنازُل عن الثوابـت، فهي دعوةٌ مرفوضةٌ أيضًا، وقد حذَّرَنا ربُّنا من هذا التنازُل؛ وذلك في قوله – تعالى – مُخاطِبًا رسولَه – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وأمَّا إنْ كان الأساسُ الذي تَقُوم عليه الدعوةُ هو الاستِمساكَ بالحق، ورِعاية مصلحة الأمَّة، واللِّقاء علـى الثوابت – فهذه الدعوةُ هي الدعوة المقبولة، واللِّقاء على أَساسِها هو اللِّقاء المستمرُّ المُثمِر.

﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذه الدعوةُ قائمةٌ على دِين الأمَّة وقِيَمها ومصلحتها، لا على الأهواء والمصالِح؛ ذلك لأنَّه لا يُمكِـــن أن يلتَقِي الناس على الهَوى؛ فالأهواء مُتعدِّدة بتعدُّد الأشخاص، ولكن الحقَّ واحد؛ قال الله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، وقد خاطَب ربُّنا – تقدَّست أسماؤه – نبيَّ الله داود، فقال له: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

ونهى ربُّنا – سبحانه – عبدَه ورسولَه محمَّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – عن طاعة مَن يتَّبع هواه؛ فقـــال: ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهـــف: ٢٨]، إنَّ الأزمـــة مُســـتَحكِمة، وأخطارها ضخمةٌ أليمة، والعِلاج أن نتَّحِد ونتوحَّد على كتاب الله وسُنَّة رسوله – صلَّى الله عليـــه وســـلَّم – ورعاية مَصلَحة البلاد والعِباد، ونَنأَى عن التنازُع والتفرُّق؛ قال الله – تعالى –: {﴿ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال – تعالى –: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَـــدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

فيا حبَّذا الاجتماع على الكِتاب والسنَّة، ثم على مصلَحة الأمَّة، إنَّنا بذلك نُحقِّق لأمَّتنا عزَّةً سامِيَة، ومكانةً عالِيَة، ولرسالتنا ذيوعًا وانتشارًا، ولقضيَّتنا نصرًا مُؤزَّرًا.

وإذا تحقَّق ذلك فلا يَعني هذا ألاَّ يكون هناك اختلافٌ في الرأي والاجتِهاد، كلاَّ، إنَّ اخـــتِلافَ النـــاس في آرائِهم أمرٌ فَطَر الله الخَلْقَ عليه، فالحاكِم إنسانٌ مُعرَّض للخَطَأ كما هو مُعرَّض للصواب، وهو إنِ اجتَهَد مُثـــابٌ مَأجورٌ في الحالَيْن؛ يقول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إذا حكَم الحاكِم فاجتَهَد فأصاب، فله أجْران، وإذا حَكَم الحاكِم فاجتَهَد فأخطأ، فله أجرٌ واحدٌ))؛ رواه البخاري برقم (٧٣٥٢)، ومسلم بـــرقم (١٧١٦)، وأبو داود برقم (٣٥٧٤)، والترمذي برقم (١٣٢٦)، وابن ماجه برقم (١٣١٤).

ويقول الله – تعالى –: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩].

وإذا كان ذلك كذلك فلا يَجُوز أن نُصَعِّد الخِلاف حتى يكون سببًا للتفرُّق، ورَحِمَ اللهُ القائلَ: "اخـــتلاف الرأي لا يُفسِد للوُدِّ قضيَّة".

ولا بُدَّ أنْ يكون اختِلافٌ في الرأي في بعض الأمور، وهذا مُلاحَظٌ بين الـــزَّوج وزَوجتـــه، وبـــيْن الأب وأولاده، وبيْن الأخ وإخوانه، وبين الشَّرِيك وشَرِيكه، وبين الإمام وتلامذته، فلقد خالَف أبو يوسف ومحمـــدٌ – تلميذَا الإمامِ أبي حنيفة – أستاذَهما في عددٍ كبيرٍ من المسائل.

إنَّ الخِلاف لا يُمكِن أنْ يُستَبعَد، وهو مقبولٌ عندما يكون في دائرة الشَّرْعِ، وعندما يكون أصحابُه متَّصِفين بالأخلاق الإسلاميَّة، من الصِّدق والإخلاص، والأمانة ومُراقَبة الله، والبُعْد عن الأَثَرَة والتَّعالِي.

نسأَلُ الله أنْ يردَّ المسلمين إلى دِينهم رَدًّا جميلاً، وآخِر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.